



Superposed Time: Toward a Quantum Metaphor for Analyzing Temporal Structures in Literary Narrative

Dr. Samar George Al Dayyoub

Independent Researcher, United Arab Emirates

ARTICLE INFO

KEYWORDS

الزمن السرديّ، الزمن المتراكب، النقد الكوميّ، الا
حتمية الدلالية، السرد العربيّ، فيزياء الكمّ، النماذج
الاحتمالية.

HOW TO CITE

Al-Dayyoub, D. S. G. (2026). Superposed Time: Toward a Quantum Metaphor for Analyzing Temporal Structures in Literary Narrative. Emirati Journal of Digital Art AND Media, 4(2), 4-10.

<https://doi.org/10.54878/8nyotgo8>

ABSTRACT

يتناول هذا البحث مفهوم الزمن المتراكب بوصفه إطاراً نقدياً جديداً لتحليل البنى الزمنية في السرد الأدبيّ، مستلهماً مبادئ الاحتمال، والتراكب من فيزياء الكمّ، ومن نماذج الذكاء الاصطناعيّ القائمة على تعدّد الحالات الدلالية. وينطلق من فرضية أنّ الزمن في النصوص السردية يعمل بوصفه فضاءً احتمالياً تتعايش فيه مسارات زمنية متعددة قبل أن يحسمها فعل القراءة، على نحو يشبه آليات "القياس" في الأنظمة الذكيّة، لا بوصفه خطاباً متعاقباً يعتمد البحث منهجاً بيّناً يربط بين السرديات الحديثة، وفلسفة الزمن، والنماذج الاحتمالية في الذكاء الاصطناعيّ، ويطبّق المفهوم على نصوص عربيّة مختارة؛ للكشف عن كيفية تشكّل الزمن بوصفه بنية دلالية ديناميّة. وتخلص الدراسة إلى أنّ "الزمن المتراكب" يمثل أفقاً معرفياً جديداً، يمكن الاستفادة منه في تحليل السرد، وفي تطوير أدوات قراءة رقيّة، تستند إلى مبادئ الاحتمالية، والتراكب الدلاليّ. ويقترح أسس ما يمكن تسميته بـ "النقد الكوميّ" بوصفه أفقاً تفسيرياً جديداً لدراسة السرد الأدبيّ، وعلاقته بالمعنى، والهويّة، والوجود.



Double-blind peer review by independent reviewers.

Received: 01 Jul 2026, Accepted: 10 Nov 2026, Published: 05 Dec 2026

*Corresponding author: day_samar@yahoo.com

Copyright: © 2026 by the author. Licensee Emirates Scholar Center for Research & Studies, UAE.

Open access under the Creative Commons Attribution (CC BY) license

<https://creativecommons.org/licenses/by/4.0>

النص.

يشير الزمن الخطي إلى البنية الكلاسيكية التي تنتظم فيها الأحداث على وفق تعاقب سببي منتظم (بداية - وسط - نهاية)، وهو النموذج المهيمن في الرواية الواقعية التقليدية. أما الزمن غير الخطي فيحيل إلى كسر هذا الترتيب عبر تقنيات مثل: الاسترجاع والاستبصار والتكرار، لكنه يظل محكوماً بمنطق الانتقال بين الأزمنة، لا بتعايشها. في حين يقوم الزمن المتداخل على تفاعل الأزمنة داخل النص، فيؤثر الماضي في الحاضر أو يُعاد تأويله من خلاله، غير أن هذا التفاعل يظل قائماً على منطق التتابع الدلالي.

في مقابل ذلك، يقوم الزمن المتراكب على بنية أنطولوجية مختلفة جذرياً، إذ لا يفهم الزمن بوصفه انتقالاً بين حالات، بل بوصفه وجوداً متزامناً لاحتمالات زمنية متعددة داخل اللحظة السردية نفسها. لا يسود خط زمني واحد بشكل دائم، ولا يُحسم المعنى لصالح أحد الاحتمالات، بل يتعايش الماضي، والحاضر، والمستقبل، والممكن بوصفها حالات دلالية متكافئة الوجود.

بهذا المعنى، لا يمثل الزمن المتراكب درجة إضافية من اللا خطية، بل نقلة نوعية من منطق "الترتيب" إلى منطق "الوجود".

الزمن بوصفه مادة وجودية للسرد

شهد النقد السردى الحديث تحولاً جذرياً في النظر إلى الزمن، من كونه إطاراً تنظيمياً محايداً للأحداث، إلى كونه مادة وجودية تشكل وعي الشخصيات، وبنية النص في آن. فلم يعد الزمن يُقاس بالمدة والترتيب لحسب، لقد أضحت تجربة معيشة، تشكل عبر الذاكرة، والانتظار، والتوقع، والندم، والاحتمال.

في فلسفة هنري برجسون Henri Bergson، يتم تمييز الزمن الرياضي المجزأ من الزمن الداخلي المتصل، فيُفهم الزمن بوصفه تدفقاً شعورياً، لا يمكن تقسيمه إلى وحدات مستقلة. ويطور بول ريكور Paul Ricoeur هذا التصور في "الزمن، والسرد"، مؤكداً أن السرد لا يعكس الزمن، بل يشكّله حكماً عبر تنظيم التجربة الإنسانية في بنية دلالية. أما باختين Mikhail Bakhtin، فيبرز -عبر مفهوم تعدد الأصوات- كيف تتعايش وعيات سردية متعددة، لكل منها منظورها الزمني الخاص، من غير أن تذوب في وعي سردي مركزي داخل النص الواحد.

وتبلغ هذه الرؤية ذروتها في روايات تيار الوعي، إذ تتحول اللحظة السردية إلى فضاء تراكب فيه الانطباعات الحسية الفورية مع ذكريات بعيدة، وتوقعات مستقبلية، بحيث لا يمكن الفصل بينها من حيث الحضور النفسي. غير أن هذه المقاربات -مع عمقها- بقيت في إطار الوصف الظاهري لتجربة الزمن، من غير أن تنتقل إلى بناء أنموذج أنطولوجي يفسر كيفية وجود الأزمنة داخل النص بوصفها حالات متعايشة، لا متعاقبة.

من هنا تنشأ الحاجة إلى أنموذج نقدي يتجاوز توصيف الانزياحات الزمنية، نحو فهم الزمن السردى بوصفه نمط وجود خاصاً للمعنى داخل النص.

التراكب الكومي كأنموذج أنطولوجي

في فيزياء الكمّ، لا تُعرف الحالة الفيزيائية للنظام على أساس قيمة واحدة محددة، بل بوصفها دالة موجية احتمالية تصف تركيباً خطياً من حالات ممكنة متعايشة في آن، فيما يُعرف بمبدأ التراكب الكومي (Quantum Superposition). على وفق هذا المبدأ، يمكن للنظام الفيزيائي أن يوجد في أكثر من حالة في اللحظة نفسها، ولا ينهار هذا التعدد إلى حالة واحدة إلا عند حدوث عملية قياس، أو ملاحظة.

يمثل هذا التصور انقلاباً جذرياً على المنطق الكلاسيكي للوجود، إذ تصبح الاحتمالية خاصية بنوية في طبيعة الواقع نفسه، لا مجرد نقص في المعرفة. فلا يمتلك الجسم حالة واحدة "مخفية"، بل يوجد فعلياً في حالات متراكبة حتى لحظة التفاعل مع جهاز القياس.

وإن كانت الدلالة الأنطولوجية الدقيقة للتراكب تختلف باختلاف تفسيرات ميكانيكا الكمّ، فإن الصياغة القياسية تتفق على توصيف الحالة بوصفها تركيباً احتمالياً، لا حالة مفردة قبل القياس.

يتيح هذا الأنموذج الوجودي إمكان تفسير جديد للزمن السردى، بوصفه فضاءً لاحتمالات زمنية متعايشة، لا تحسم إلا عبر فعل نصي، أو تأويلي يقوم بدور "القياس". وهنا لا تُستدعى الفيزياء بوصفها استعارة بلاغية، بل بوصفها أنموذجاً أنطولوجياً يسمح بإعادة توصيف كيفية وجود الزمن داخل النظام الدلالي للنص.

التعريف الإجرائي لمفهوم "الزمن المتراكب"

بناءً على ما سبق، يمكن تعريف "الزمن المتراكب" (Superposed Time) بأنه: حالة سردية أنطولوجية داخل النص الأدبي، يتعايش فيها احتمالان زمنيان، أو أكثر (ماضي/حاضر/مستقبل/ممكن) بوصفها حالات دلالية متكافئة الوجود داخل اللحظة السردية نفسها، من غير أن يُحسم أحدها على الآخر إلا عبر حدث نصي، أو فعل تأويلي يقوم بدور "القياس".

وهو تعريف إجرائي مُستخلص من تقاطع دراسات الزمن السردى الحديثة، وفلسفة الزمن، والأنموذج الأنطولوجي للتراكب في ميكانيكا الكمّ.

ويتميّز الزمن المتراكب بخمس خصائص تشغيلية أساسية:

- التعايش المتساوي: لا يهيمن خط زمني واحد دائماً على سائر الخطوط.
- الاحتمالية النصية: يحتفظ النص بمسارات تفسيرية متعددة، محتملة في آن.
- التشابك الدلالي: يرتبط كلّ عنصر زمني بعناصر أخرى ارتباطاً عضوياً.
- حدث الانهيار/القياس: لحظة نصية، أو قرائية تُجبر النظام على الحسم المؤقت.
- تحدي السببية الخطية: تضعف علاقة السبب والنتيجة التقليدية، أو تلغى.
- الزمن المتراكب في حكايات ألف ليلة وليلة "الحمال والبنات أنموذجاً"

تُعدُّ حكاية الحَمَل والبنات من أشهر الحكايات الإطارية في ألف ليلة وليلة، وتمتد أحداثها عبر عدد من الليالي، إذ تنفّرع عن الحكاية الإطار الكبرى التي ترويها شهرزاد لشهریار. وتبدأ الحكاية بلقاء حَمَل فقير ثلاث فتيات في سوق بغداد، يُطلب إليه حمل مشترياتهنّ إلى دارهنّ، ثمّ يُستضاف في مجلسٍ طقسيٍّ مشروط بالمنع، والصمت، وعدم السؤال عمّا لا يعنيه. وسرعان ما يتحول هذا المجلس إلى فضاء سرديٍّ تتضمّن فيه الحكايات: حكايات الصعاليك الثلاثة، وحكايات الفتيات، ثمّ تدخل الخليفة هارون الرشيد متنكرًا، بوصفه سلطة حكم، واستماع في آن.

لا تقوم الحكاية على حبكة خطيّة متصاعدة، بل على بنية متشعبة تتناسل فيها الحكايات داخل الحكاية، ولُستدعى السرد بوصفه وسيلة للنجاح، وتأجيل العقاب. كما تتجاوز في النصّ مستويات متعدّدة من الخطاب: العجائبيّ، والغرائبيّ، والأخلاقيّ، والسلطويّ، في إطار لعبة سردية واعية بذاتها، تجعل من الحكاية فعلاً مشروطاً بالحياة، والموت. وبهذا، لا تُقدّم حكاية الحَمَل والبنات بوصفها قصة عن حدث بعينه، بل بوصفها فضاءً سرديّاً مفتوحاً، تُدار فيه الأسئلة الأخلاقية، والوجودية عبر تراكم الحكايات، وتعدّد الأصوات، وتأجيل الحسم.

توصيف البنية الزمنية المتراكبة

تقوم حكاية الحَمَل والبنات على بنية زمنية مركبة لا يمكن اختزالها إلى تسلسل سرديٍّ واحد، إذ تتعايش داخل اللحظة الحكائيّة نفسها أنماط زمنية متوازية، لكلّ منها حضوره الدلالي المستقلّ. فلا ينتقل النص بين الأزمنة بقدر ما يسمح لها بالوجود المتزامن داخل فضاء سرديٍّ واحد.

يمكن تمييز خمس طبقات زمنية رئيسية متراكبة في الحكاية:

- زمن الحاضر السردية: مجلس الشراب، والأنس الذي يجمع الحَمَل بالبنات.
- زمن الماضي الاعترافي: قصص البنات الثلاث، وما تحمله من ذكريات، وخيانات، وآلام.

- زمن الترقّب الأخلاقي: انتظار تدخل السلطة (هارون الرشيد) للحكم.

- زمن الإطار الحكائي: زمن شهرزاد، وهي تروي القصة لشهریار.

- زمن القارئ: الزمن التأويلي الذي يُعاد فيه بناء المعنى أخلاقياً.

اللافت أنّ هذه الأزمنة لا تُقدّم بوصفها مراحل متعاقبة، بل بوصفها حالات متزامنة الحضور، فلا يُستعاد الماضي ليُغلق، بل ليبقى فاعلاً في تشكيل الحاضر، ولا يأتي الحكم الأخلاقيّ لينهي التوتر، بل ليؤجّله، ولا يعلو زمن شهرزاد على زمن الشخصيات، بل يتشابك معه.

بهذا المعنى، لا نكون أمام "حكايات داخل حكاية" بالمعنى البنيوي التقليدي، إنّما أمام نظام زمنيّ متراكب، تتعايش فيه حالات زمنية متعدّدة داخل اللحظة السردية الواحدة.

لا يقتصر التراكم الزمنيّ في هذه الحكاية على التوازي الشكليّ، إنّهُ يتخذ طابعاً دلاليّاً عميقاً عبر ما يمكن تسميته بـ "التشابه السردية". فكلّ قصة من قصص البنات تعيد تشكيل دلالة القصص الأخرى، كما تعيد تأويل الموقف السردية العام.

فلا تُفهم قصة الفتاة الأولى -مثلاً- بمعزل عن الثانية، ولا الثانية من دون الثالثة، تتكوّن شبكة من الإحالات المتبادلة تجعل كلّ زمن ماضٍ يعيد تفسير زمن ماضٍ آخر، ويؤثّر في الحاضر السردية فوراً. وهكذا يصبح الزمن الماضي عنصراً حياً يعيد إنتاج الحاضر باستمرار، لا ذكرى.

يجعل هذا التشابه المعنى يعيش في حالة "تراكم دلاليّ"، فلا يمكن تثبيت قراءة أخلاقية واحدة للشخصيات: هل هنّ ضحايا، أو مذنبات؟ هل المجلس فضاء للانحراف، أو مساحة للروح؟ هل الحكايات تبرير، أو إدانة؟ تبقى هذه الاحتمالات قائمة في آن، من غير أن يلغى أيّ منها.

حدث القياس المؤجّل: فشل الحسم الأخلاقي

تمثّل لحظة تدخل هارون الرشيد في الحكاية ما يشبه من حيث البنية السردية "حدث القياس" في الفيزياء الكمومية. فتمتلك السلطة -هنا- القدرة على الحسم الأخلاقيّ النهائي؛ إدانة أو عفو، عقاب أو تسامح.

غير أنّ ما يميّز هذه الحكاية هو أنّ القياس لا يؤدي إلى انهيار واضح للحالة المتراكبة، بل يُعاد تأجيله أو تفرغه من طاقته الحاسمة. فبدلاً من إصدار حكم أخلاقيّ صارم، ينتهي الأمر بالعفو، من دون إعادة بناء معيار أخلاقيّ مستقر.

بعبارة أخرى: لا يسمح النصّ بانهيار التراكم إلى معنى واحد نهائيّ، إنّهُ يحافظ على حالة اللا يقين الدلاليّ حتى النهاية. فلا يُغلق السؤال الأخلاقيّ، إنّهُ يُعلّق. وهنا تتجلّى إحدى أهمّ خصائص الزمن المتراكب؛ فيسعى إلى إدارة التوتر، لا إلى حله.

القارئ بوصفه جهاز القياس التأويلي

إذا كان هارون الرشيد يمثل جهاز القياس الداخليّ للنص، فإنّ القارئ يمثل جهاز القياس الخارجيّ. فيضع النصّ القارئ في موقع لا يمكن فيه الاكتفاء بالتلقّي، إنّهُ يضطره إلى اتّخاذ موقف أخلاقيّ خاصّ به، فهل يتعاطف مع البنات؟ هل يدينهنّ؟ هل يرى في الحكاية نقداً أخلاقياً، أو احتفاءً باللذة؟

غير أنّ هذه العملية التأويلية لا تنجح في إنتاج معنى واحد مستقر، بل تظلّ القراءات في حالة تذبذب، تبعاً لمنظور القارئ، وخلفيته الثقافية. وهكذا يصبح القارئ مشاركاً في التراكم، لا مُنهيّاً له، إذ يضيف تأويلاً جديداً من غير أن يلغى التأويلات الأخرى.

بهذا المعنى، لا يعمل القارئ على "اكتشاف" معنى النص، إنّهُ يدخل في نظامه الكوميّ، إذ يصبح المعنى احتمالياً بطبيعته.

من الميتا سرد إلى الميتا زمن

إذا كان يمكن توصيف حكاية الحمال والبنات بوصفها أمودجاً للسرد الإطاري أو "الحكاية داخل الحكاية" - على وفق تحليل جيرار جينيت مستويات السرد - فإن هذا الوعي البنيوي لا يقتصر على فعل الحكيم ذاته، إنه يمتد ليطل بنية الزمن السردية نفسها.

فيفكك النص منطق السببية الزمنية، ويحوّل الزمن من مسار خطي إلى فضاء وجودي تتعايش فيه احتمالات متعددة للمعنى.

وهنا يمكن القول إن ألف ليلة وليلة - في هذه الحكاية تحديداً - لا تؤدي لعبة سردية لحسب، إنها تقدم تجربة أنطولوجية للزمن، تسبق بكثير التصورات الفلسفية الحديثة حول اللاحقين والتعدد والاحتمال.

تكشف حكاية الحمال والبنات - من منظور النقد الكومي - عن بنية زمنية قائمة على التراكم، لا التعاقب، وعلى الاحتمال، لا الحسم، وعلى التعايش، لا الإلغاء. إنها نص لا يسمح بانتهار المعنى إلى حالة واحدة، إنه يقيه في حالة دينامية مفتوحة، حيث تتعايش الأزمنة، والدلالات في نظام واحد من دون مركز ثابت.

وبذلك تمثل هذه الحكاية أمودجاً مبكراً لما يمكن تسميته بـ "الزمن المتراكب" في السرد، وتؤكد أنّ هذا النمط من الوجود الزمني بنية عميقة في الخيال السردية الإنساني، لا حادثة طارئة.

الزمن المتراكب في "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري من التراكب السردية إلى التراكب الوجودي

البنية الزمنية اللا مركزية في رسالة الغفران

تمثل رسالة الغفران نصاً إشكالياً من حيث بنيته الزمنية، إذ لا تنتظم أحداثه على وفق منطق سردي خطي، ولا على وفق تتابع سردي تقليدي قائم على الانتقال بين العوالم، بل تقوم على فضاء وجودي تتعايش فيه أزمنة متعددة داخل بنية واحدة.

ويجمع النص في اللحظة السردية نفسها بين زمن الحياة الدنيا المرتبط بسيرة ابن القارح قبل الموت، وزمن الحساب الأخروي المتمثل في المرور على الصراط والجنة والنار، وزمن التخيل الذي تتخذ فيه الرحلة طابعاً تخيالياً، إلى جانب زمن السخرية النقدية المتجلى في التعليق الضمني، وزمن التراث الشعري عبر استدعاء شعراء من عصور مختلفة.

ولا تُقدّم هذه الأزمنة بوصفها مراحل متعاقبة في مسار وجودي واحد، بل بوصفها حالات متداخلة ومتراكبة، فلا ينتقل ابن القارح من زمن إلى آخر انتقالاً سردياً واضحاً، إنه يحمل معه زمنه الدنيوي داخل الفضاء الأخروي، كما تتقاطع لحظة الحساب مع السخرية، ويتجاوز زمن الشعر مع زمن الآخرة. وبهذا

يظهر الفضاء الأخروي بوصفه حالة سردية يتراكب فيها الزمن، لا بوصفه نهاية للزمن.

التشابك الوجودي بين الدنيا والآخرة

يقوم التصور الديني التقليدي على الفصل بين زمن الدنيا بوصفه زمن العمل، وزمن الآخرة بوصفه زمن الجزاء. غير أنّ رسالة الغفران تعيد تمثيل هذا الفصل داخل بنية سردية تقوم على التشابك، إذ تتعايش الدنيا والآخرة داخل التجربة السردية الواحدة. فلا تنفصل الشخصيات الشعرية التي يلتقيها ابن القارح في الجنة عن ذواتها السابقة، إنها تستعيد خلافتها، ومعاييرها الدنيوية، ويُنظر إليها من اعتبارات لغوية، وبلاغية، ومذهبية.

ويترتب على هذا التشابك أن يُقدّم الزمن الأخروي في النص بوصفه زمناً مفتوح الدلالة، تتجاور فيه قراءات متعددة عدلية، وساخرة، وتأملية من غير أن يفرض السرد آلية داخلية للحسم بينها. وبذلك يبقى المعنى معلقاً داخل فضاء تأويلي واحد، تتعايش فيه الاحتمالات.

حدث القياس المستحيل: غياب الحسم الميتافيزيقي

إذا أمكن في ألف ليلة وليلة تحديد ما يشبه "حدث القياس" في تدخل السلطة بوصفه مرجعاً سردياً للحسم، فإن رسالة الغفران تتجه إلى بنية سردية أكثر تعقيداً، إذ لا تُقيم داخل النص آلية تفسيرية نهائية تضبط تمثيل الآخرة. فيتجسّد السرد تعدد أصوات، وخطابات: فقهية، وشعرية، وساخرة، وتأملية، تتجاور داخل الفضاء النصي من غير أن ينتظم أي منها في مركز ميتافيزيقي حاسم.

ومن ثم، لا تُقدّم الجنة في النص بوصفها حقيقة سردية مغلقة، بل بوصفها تمثيلاً أدبياً قابلاً للتأويل والتفكيك، يخضع لمنطق الحكيم، لا لمنطق التقرير العقدي. ومن هذا المنظور، يبلغ مفهوم الزمن المتراكب ذروته في رسالة الغفران، من حيث تراكب الأزمنة، وتراكب أنماط التمثيل الدلالي داخل البنية السردية نفسها.

القارئ أمام تراكب ميتافيزيقي لا يُحسم

يوضع القارئ في رسالة الغفران أمام معضلة تأويلية مزدوجة: هل يتعامل مع النص بوصفه تمثيلاً ذا خلفية دينية، أو بوصفه تجربة فكرية ذات أفق تأملي؟ ولا يُقدّم السرد آلية لحسم هذا السؤال، إنه يبقى القارئ في حالة تردد بين قراءات متعددة. وبذلك لا يؤدي القارئ دور "جهاز القياس" بالمعنى الحاسم، بل يتحول إلى عنصر مشارك في النظام التأويلي المتراكب، يضيف احتمالاً جديداً من غير أن يلغي الاحتمالات السابقة.

من التراكب السردية إلى التراكب الوجودي

إذا كانت حكاية الحمال والبنات تمثل أمودجاً للتراكب السردية الأخلاقي، فإن رسالة الغفران تنقل المفهوم إلى مستوى أعمق يمكن وصفه بالتراكب الوجودي. فلا يقتصر النص على اللعب بالزمن الحكائي، بقدر ما يُعيد تمثيل أزمنة الحياة

والموت والخلود، إلى جانب زمن الشعر وزمن العقل، ضمن فضاء سردي واحد، لا يذوب في تصوّر متجانس.

وعليه، لا تسعى رسالة الغفران إلى تقديم إجابة نهائية عن أسئلة الوجود، بقدر ما تُحوّلها إلى شبكة احتمالية مفتوحة، تتعايش فيها الأزمنة، والدلالات داخل نظام واحد. ومن هذا المنظور، تكشف مقارنة النصّ عبر مفهوم الزمن المتراكب عن بنية وجودية تجعل من رسالة الغفران نصّاً إشكالياً عميقاً، تُدار فيه الأسئلة الكبرى عبر التراكم والتشابك والتعليق، لا عبر الحسم والإغلاق.

إنها ليست رحلة إلى الآخرة، هي رحلة داخل بنية الاحتمال نفسها، حيث لا يلغى زمن لصالح زمن، ولا حقيقة لصالح حقيقة، بل يتعايش الجميع في فضاء دلالي واحد مفتوح، يمكن وصفه بدقة بأنه زمن متراكب كونيّ.

الزمن المتراكب في رواية "باب الشمس" لإلياس خوري من التراكم الوجودي إلى التراكم التاريخي-الهوياتي

تعدّ رواية باب الشمس لإلياس خوري من أبرز الأعمال السردية العربية التي تناولت التجربة الفلسطينية بوصفها تاريخاً مفتوحاً، لا يُختزل في حدث واحد أو زمن منته. تدور الرواية في إطار حكاية يقوم على صوت راوٍ رئيس هو الطبيب خليل، الذي يروي حكاية المقاومة يونس وهو في غيبوبة داخل مستشفى في بيروت، مستعيداً عبر السرد المتقطع مسارات متعددة من الذاكرة الفردية، والجماعية: النكبة، والمنفى، والمقاومة، والحياة اليومية في الخيمات. فلا تُبنى الرواية على تسلسل تاريخي خطي، إنها شبكة من الحكايات المتداخلة التي تتكرر، وتشظّي، وتغيّر زوايا النظر إليها، فيتحوّل الماضي إلى مادة حاضرة في السرد، ويغدو الحكي نفسه فعلاً للحفاظ على الحياة والذاكرة في مواجهة النسيان والموت. وبهذا، لا تقدّم باب الشمس سردية تاريخية مغلقة، إنها تؤسس فضاءً روائيّاً يقوم على التعدّد والاحتمال، حيث يتداخل التاريخ بالأسطورة، والذاكرة بالخيال، والحدث السياسي بالتجربة الوجودية.

البنية الزمنية المفتّحة: غياب الخط التاريخي الواحد

لا تقوم رواية "باب الشمس" على زمن تاريخي خطي، يمكن تتبعه من نقطة بداية إلى نقطة نهاية، بل على بنية زمنية مفتّحة تتداخل فيها طبقات متعددة من الماضي والحاضر والاحتمال، فيفقد الزمن طابعه التسلسلي، ويتحوّل إلى فضاء سرديّ احتماليّ.

فتُبنى الرواية على سرد تاريخ النكبة بوصفه حدثاً لا يزال جارياً داخل الحاضر، ويعيد تشكيله باستمرار. زمن الرواية (الطبيب خليل)، وزمن يونس (المقاوم الغائب الحاضر)، وزمن الحميم، وزمن الذاكرة، وزمن الحلم. تتعايش كلّها داخل النص من غير أن ينتظم أيّ منها في مركز زمنيّ ثابت.

بهذا المعنى، لا يمكن القول إنّ الرواية "تستعيد الماضي"، إنها تعيش الماضي في الحاضر، وتجعل الحاضر نفسه حالة متراكبة من الأزمنة.

التشابك الزمني بين الذاكرة والتاريخ والخيال

يتميّز الزمن في "باب الشمس" بما يمكن تسميته "التشابك الذاكري"، إذ تعمل الذاكرة بوصفها قوّة فاعلة، تعيد إنتاج الحدث باستمرار. فيروي قصة يونس بوصفها احتمالية وجودية: هل يونس حي؟ هل مات؟ هل كان بطلاً؟ هل كان وهماً سردياً؟ ولا تروى بوصفها واقعاً سردياً.

تبقى جميع هذه الاحتمالات متعايشة داخل النص من دون حسم، فيتحوّل يونس إلى حالة زمنية متراكبة بين الحياة والموت، بين الواقع والأسطورة، بين الفرد والجماعة، لا إلى شخصية تاريخية مكتملة.

وهنا يتلاشى الحدّ الفاصل بين زمن التاريخ (ما حدث)، وزمن الذاكرة (ما يُذكر)، وزمن السرد (ما يُقال)، وزمن الاحتمال (ما كان يمكن أن يحدث) ليصبح الزمن فضاءً دلاليّاً واحداً متعدّد الطبقات.

حدث القياس المستحيل: استحالة حسم السرد الفلسطينيّ

إذا كان حدث القياس في ألف ليلة مؤجلاً، وفي رسالة الغفران ملغى، فإن "باب الشمس" تذهب أبعد؛ إذ إنها تجعل القياس مستحيلاً بنيوياً، فلا تسمح بحسم سؤال مركزيّ واحد: هل انتهت فلسطين؟ هل انتهى يونس؟ هل انتهت المقاومة؟ هل انتهت الحكاية؟

تُقابل كلّ نهاية محتملة -فوراً- باحتمال معاكس. حتى الموت في الرواية يُقدّم بوصفه حالة تعليق بين الوجود، والغيب، لا بوصفه نهاية زمنية.

بهذا المعنى، لا يوجد في الرواية "انهيار زمنيّ" نحو معنى واحد، بل استمرار دائم لحالة التراكم، وكأنّ النصّ يرفض -من حيث المبدأ- منطق النهاية التاريخية.

القارئ داخل نظام التراكم التاريخيّ

يُوضع القارئ في "باب الشمس" داخل وضع تأويليّ خاص. هو لا يقرأ تاريخاً، بل يشارك في بنائه. فلا يقدم النصّ سردية فلسطينية مكتملة، إنه يقدم شبكة من الاحتمالات، كروايات متناقضة، وذاكرات متصارعة، وأصوات لا تُجمع في صوت واحد.

وبذلك يعمل القارئ بوصفه عنصراً داخلاً في النظام الزمنيّ المتراكب، لا بوصفه مستقبلاً للمعنى، إذ يضيف قراءته الخاصة من غير أن يتمكن من تثبيت حقيقة نهائية. فلا ينهي القارئ -هنا- التراكم، إنه يعيد إنتاجه.

من التراكم الوجودي إلى التراكم الهوياتي

إذا كانت رسالة الغفران قد أثارت سؤال الوجود في إطار ميتافيزيقيّ، فإن "باب الشمس" تنقل مفهوم الزمن المتراكب إلى مستوى أكثر تقدماً، مستوى الهوية الجماعية.

فلا تُقدّم الهوية الفلسطينية بوصفها جوهرًا ثابتاً، ولا تاريخاً مغلقاً، بل بوصفها حالة زمنية متراكبة بين ما كان، ما هو، ما يُراد له أن يكون، وما كان يمكن أن يكون.

وهكذا تتحول الهوية نفسها إلى نظام احتمالي مفتوح، يعيش في حالة توتر دائم بين الذاكرة، والواقع، والخيال.

مقارنة تحليلية بين نماذج الزمن المتراكب

تُظهر المقارنة بين ألف ليلة وليلة، ورسالة الغفران، وباب الشمس إمكان بناء نموذج تفسيري واحد للزمن المتراكب، يتجلى بثلاث صور مختلفة تبعاً لوظيفة الزمن داخل كل نص. ففي ألف ليلة وليلة، يتخذ التراكب طابعاً سردياً أخلاقياً؛ إذ تتعاش داخل اللحظة الحكائية أزمنة متباعدة: ماضٍ خفي محمل بالجرح والخطيئة، وحاضر طقسي قائم على المنع والإخفاء، ومستقبل مهّد يتجسد في احتمال الكشف والعقاب. ويقع "حدث القياس" هنا في خرق المنع السردية؛ أي في لحظة السؤال أو الاعتراف، غير أنّ هذا القياس لا يفضي إلى حسم نهائي، بل إلى انهيار جزئي مؤقت يعيد النص بعده إنتاج التوتر، ويغدو الزمن أداة لإدارة الصراع الأخلاقي، وتأجيل الفصل فيه.

في المقابل، تنتقل رسالة الغفران بمفهوم التراكب إلى مستوى أنطولوجي- معرفي أعمق؛ إذ لا يقتصر التداخل على الأزمنة الحكائية، بل يشمل أنماط الوجود، والمعرفة نفسها. فالدينوي، والأخروي، والجدي، والسخر، والتقري، والتعليقي، تتعاش جميعها داخل فضاء واحد من غير أن ينتظم أي منها في حقيقة مهيمنة. وبهذا يغدو "حدث القياس" المتمثل في الأحكام الفكرية، والمفارقات العقلية حدثاً فاشلاً بنوياً؛ إذ لا يؤدي إلى انهيار التعدد، بل إلى تكريسه، وتحوّل وظيفة الزمن إلى تقويض فكرة الحسم ذاتها، لا إلى تأجيلها لحسب.

أما باب الشمس، فيمثل انتقالاً بالمفهوم إلى حقل التاريخ والهوية، فيتخذ التراكب طابعاً تاريخياً، وجودياً. ولا يفهم الزمن -هنا- بوصفه تعاقب وقائع، بل بوصفه شبكة من الذاكرة، والحكاية، والحاضر السياسي، تتعاش داخل النص من دون مركز زمني ثابت. ويقع "حدث القياس" في فعل السرد ذاته، أي في الإصرار على الحكيم بوصفه مقاومة للنسيان، ومحاولة لإبقاء التاريخ حياً، غير أنّ هذا القياس لا ينهي التراكب، إنه يعيد إنتاجه، فيصبح الزمن أداة لإدامة المعنى، لا لتثنيته.

وعليه، فإن الزمن المتراكب يُقترح بوصفه مفهوماً تفسيريّاً لا يصف بنية نصية جاهزة، بل يحدّد شرطاً من شروط اشتغال المعنى في السرد؛ إذ لا يظهر إلا حين يغدو الزمن نفسه موضوعاً للصراع، والتفاوض داخل النص. ومن هذا المنظور، لا يقدم المفهوم تفسيراً شاملاً لكل السرديات، بل أداة تحليلية موجهة لفهم النصوص التي تنظّم معناها عبر التعليق، والتراكب، وتأجيل الحسم.

نحو نقد كومي: نتائج البحث، وإمكاناته

يخلص هذا البحث إلى أنّ الزمن في السرد الأدبي لا يمكن الاستمرار في مقارنته بوصفه إطاراً تنظيمياً محايداً للأحداث، سواء في صيغته الخطية التقليدية، أو في تمثلاته الاخطية والمتداخلة، بل يتعيّن إعادة توصيفه بوصفه نمط وجود دلالي يتحدّد عبر علاقة النص بالاحتمال، والا حسم، والتعدد. وقد بينّ التحليل أنّ

عددًا من النصوص السردية: التراثية، والحديثة على السواء، لا تُنتج معناها بتعاقب زمني مغلق، بل بتعاش احتمالي للأزمنة داخل اللحظة السردية نفسها.

وانطلاقاً من هذا المعطى، صاغ البحث مفهوم "الزمن المتراكب" بوصفه أداة تفسيرية تتيح فهم النص الأدبي باعتباره نظاماً دلاليّاً، لا يفضي إلى معنى واحد نهائي عبر مسار زمني محدد، إنه يُنتج حقلاً من الاحتمالات المتراكبة، لا ينهار إلى تأويل بعينه إلا عبر تدخل تأويلي سياقي.

وبهذا المعنى، يتحول الزمن من كونه خلفية للسرد إلى كونه بنية أنطولوجية فاعلة في إنتاج المعنى.

وقد أظهر تطبيق مفهوم الزمن المتراكب على ثلاثة نصوص من عصور، وسياقات مختلفة أنّ هذا النمط الزمني يتخذ تجليات متعددة تبعاً لوظيفة الزمن داخل كل نص.

وتؤكد هذه التطبيقات أنّ الزمن المتراكب ليس ظاهرة أسلوبية مرتبطة بمرحلة تاريخية بعينها، إنه بنية سردية عميقة، عابرة للعصور.

1-6- البيان النظري- مبادئ النقد الكومي

استناداً إلى النتائج النظرية، والتطبيقية يقترح البحث مجموعة من المبادئ التي تشكل الأساس لما يمكن تسميته بـ "النقد الكومي"، وهي مبادئ لا تدعي الإحلال محل المناهج النقدية القائمة، بل تسعى إلى توسيع أفقها التفسيري:

مبدأ الاحتمالية الدلالية: يتيح النص الأدبي تعاش احتمالات دلالية متعددة، ولا يُنتج معنى واحداً نهائياً.

مبدأ التراكب الزمني: الزمن في النص حالة تعاش للأزمنة داخل البنية السردية، لا تعاقب خطي للأحداث.

مبدأ القارئ الملاحظ: القارئ عنصر فاعل في إنتاج المعنى، لا متلقٍ سلبي له.

مبدأ التشابك السردية: تعمل العناصر النصية ضمن شبكة ترابطية، لا يمكن تفكيكها إلى وحدات مستقلة.

مبدأ استحالة الحسم النهائي: كلّ تأويل هو بالضرورة مؤقت وسياقي، ولا يرقى إلى مستوى الحقيقة الكونية، أو النهائية.

2-6- آفاق البحث، وإمكاناته

يفتح هذا البحث المقام أمام إعادة النظر في مركزية عدد من المفاهيم النقدية التقليدية، كالزمن الخطي، والشبكة المغلقة، والخاتمة الحاسمة بوصفها مفاهيم لم تعد كافية -وحدها- لتحليل السرد الحديث، والمعاصر. كما يدعو إلى توسيع أفق الدراسات البينية التي تجمع بين النقد الأدبي، والفلسفة، والنماذج المعرفية المستمدة من العلوم الدقيقة، من غير الوقوع في النقل الحرفي أو التبسيط الاستعاري.

Ricoeur, Paul. Time and Narrative, Volume 1. Translated by Kathleen McLaughlin and David Pellauer. Chicago: University of Chicago Press, 1984.

ويُقرَح مفهوم الزمن المتراكب بوصفه حجر الأساس الأول في مشروع نقديّ أوسع، يمكن أن يمتدّ إلى ميادين تطبيقية متعدّدة، من بينها قراءة التجربة الصوفيّة بوصفها حالة زمنيّة متراكبة يتداخل فيها الفاني، والأبدّي، وتحليل السرد الرقيّ، والتفاعليّ، إذ تتعاش المسارات جميعها قبل اختيار المستخدم، وكذلك قراءة السرد البصريّ في السينما، إذ تُجسّد تقنيات مثل الشاشة المقسّمة حضور أزمنة متعدّدة في آن.

وبذلك، لا يقدّم هذا البحث خلاصة مغلقة بقدر ما يقترح أفقاً تفسيريّاً مفتوحاً، يرى في الزمن المتراكب مدخلاً لإعادة التفكير في علاقة الأدب بالمعنى، وبالزمن، وبالوجود الإنسانيّ ذاته.

المصادر والمراجع

أبو العلاء المعري: د.ت، رسالة الغفران، تحقيق وشرح عائشة عبد الرحمن، دار المعارف.

باختين، ميخائيل: 1997، قضايا شعرية دوستوفسكي، ترجمة يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق.

برغسون، هنري: 2009، بحث في المعطيات المباشرة للوعي، ترجمة الحسين الزاوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت.

الديوب، سمر: 2021، المرايا المتوازية: دراسات في الأدب العربي القديم- مركز أبو ظبي للغة العربية.

عبد الفتاح كيليطو: 1982، الأدب والغربة: دراسات بنيوية في الأدب العربي، تونكال، الدار البيضاء.

مؤلف مجهول: 1380 هـ، 1935، ألف ليلة وليلة، المجلد الأول، طبعت: على نفقة سعيد علي الخوصوي وأولاده، مصححة على النسخة المطبوعة ببولاق الأميرية، القاهرة، ص 35 وما بعدها.

Bergson, Henri. Time and Free Will: An Essay on the Immediate Data of Consciousness. Translated by F. L. Pogson. London: George Allen & Unwin, 1910.

Genette, Gérard. Narrative Discourse: An Essay in Method. Translated by Jane E. Lewin. Ithaca: Cornell University Press, 1980.

Griffiths, David J. Introduction to Quantum Mechanics. 2nd ed. Upper Saddle River, NJ: Pearson Prentice Hall, 2005.

Halbwachs, Maurice. On Collective Memory. Translated by Lewis A. Coser. Chicago: University of Chicago Press, 1992.

Ricoeur, Paul. Oneself as Another. Translated by Kathleen Blamey. Chicago: University of Chicago Press, 1992.